نماذج من روائع الأساليب

ونختم جولتنا مع الأسلوب، بعرض نماذج من روائع الأساليب البشرية مع التعرف - في إيجاز - على سمات القبول والحسن فيها ، أو على خصائص الابتكار والإبداع ليكون في ذلك لنا قدوة ومثل:

• الخطايا والتقوى •

مما يروى عن الإمام عليّ رضي الله عنه حديث وازن فيه بين الخطايا والتقوى قال:

«ألا إن الخطايا خَيْلٌ شمس حُمل عليها أهلها ، وخلعت لجمها ؟! فتقحمت بهم في النار ، وإن التقوى مطايا ذُلُلٌ ، حُمِلَ عليها أهلها، وأعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنة ».

تأملي هذا الأسلوب تجدي : «صورتين : صورة الفرس الشموس لم يروض ولم يُلجم فيندفع براكبه جامحاً لا يثني حتى يتردى به في جهنم ، وصورة الناقة الذلول قد سلس خطوها ، وخف عنانها فتنطلق بصاحبها في رسيم كالنسيم حتى تدخل به الجنة ثم تجد عاطفتين : عاطفة النفور من الألم الذي يشعر به الخاطئ المستطار ، وقد جمحت به خطاياه الرُّعن في أوعار الأرض حتى ألقته في سواء الجحيم ، وعاطفة الميل إلى لذة المتقي الوادع وقد سارت به تقواه سيراً ليناً حتى أبلغته جنة النعيم ، هذا من حيث المضمون ، أما من حيث الشكل فنجد اختيار الألفاظ المناسبة للفكرة كالمطايا وما يلائمها من الانقياد والإيراد هنا ، وكالخيل وما يوائمها من الشماس والتقحم هناك ، والفروق الطبيعية بين هذين الحيوانين في هذين المكانين لا تخفى على ذي لب ، ثم نجد بعد ذلك هذا التأليف المتوازن

المحكم الرصين ، وهذه المقابلة البديعة بين عشرة معان لا تكلف في صوغها ولا تعسف[١] .

*** وقفة قصيرة مع هذا النص:**

يتمتع هذا النص بالدقة والإحكام والوضوح والإيجاز ، والجري مع الطبع وعدم التكلف مع غزارة المعنى وسحره والتلاؤم البديع بين الصورة والفكرة .

والنظرة العجلى قد تنتهي إلى أن هذا الكلام خلا من صور البيان والبديع التي نجد لها صراخاً وهديراً في بعض النصوص ، بيد أن من يمعن النظر تتراءى له حقيقتان قد استبدتا بالنص كله لحمة وسدى وأضفتا عليه روحاً من البلاغة العالية التي تسري مسرى النسيم في الروض المزهر العبِق:

فالنص عبارة عن صورتين تشبيهتين المشبه فيهما مفرد : الخطايا والتقوى ، والمشبه به صورتان مركبتان تركيباً بديعاً ، ففي التشبيه الأول نجد المشبه به صورة الخيل الجوامح التي نزعت لجمها وامتطاها أهلها وهم فاقدو القدرة على تصرفها فأخذت تضطرب بهم حتى ألقت بهم في المهالك .

وفي الصورة الثانية نجد المشبه به صورة النوق الذلل الآمنة السير وفي أيدي راكبيها مقاودها وهم يوجهونها كيف شاءوا وهي لهم سلسة القياد مطواعة حتى تبلغهم ما يريدون من المأوى الآمن والمصير الأليف ، هذا من حيث التصوير البيانيّ .

أما من حيث الصور البديعية، فإن كل معنى في الصورتين يقابل معنى:

فالخطايا تقابل التقوى ، والخيل تقابل النوق ، والشماسة في الخيل تقابل الذلل في النوق ، ونزع اللجم في الخيل يقابل الإمساك بالأزمة في

---

(١) دفاع عن البلاغة (٢٧٩) ، مرجع سبق ذكره .

النوق ، والتقحم في الخيل يقابله « الإيراد » في النوق وجهنم في الخطايا تقابلها الجنة في التقوى ، فهي صورة من صور المقابلة يندر وجودها في الكلام ، ومع هذا فلا تُحس معها بتكلف أو تصنع كما في قول الشاعر :

على رأس حر تاج عز يزينه وفي رجل عبد قيد ذل يشينه

والفروق بين قول الإمام رضي الله عنه ، وبين قول الشاعر هذا هي الفروق بين الكلام البديع المطبوع ، وبين الكلام المتكلف المصنوع .

● موعظة من عمر رضي الله عنه ●

روى صاحب « صبح الأعشى » وابن عبد ربه في «العقد الفريد» أن عمر ابن الخطاب خطب الناس يوماً فقال :

«أيها الناس : إنه أتى عليّ حين وأنا أحسب أنه من قرأ القرآن إنه إنما يريد به الله وما عنده .

ألا وقد خُيِّل إليَّ أن أقواماً يقرأون القرآن يريدون به ما عند الناس.

ألا فأريدوا الله بقراءتكم ، وأريدوه بأعمالكم ، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل ، وإذ النبيّ ﷺ بين أظهرنا . فقد رفع الوحي، وذهب النبيّ عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لك.

ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً ، وأثنينا عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً ، وأبغضناه عليه ، اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها؛ فإنها طُلَقةٌ ، وإنكم إلا تَقْدَعوها تَنزِعُ بكم إلى شر غاية .

إن هذا الحق ثقيل مريء ، وإن الباطل خفيف وبيء ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً ».

*** وقفة مع هذا النص :**

إذا تأملت هذا الكلام وجدته شبيهاً بكلام النبوة : عفة في اللفظ

وصحة في المعنى ، وعليه من البهاء والرونق والجلال ما لا يخفى على ذي فهم ، وفيه من حسن النسق وجمال الترتيب ما نكشف عنه اللثام في شيء من الإيجاز .

فقد استهل عمر رضي الله عنه خطبته بنداء الناس ، ثم أخبرهم بما كان يعتقد في قراء القرآن ، أنهم لم يريدوا به إلا التقرب لله .

ثم أردف أن الحال قد تغيرت فصار أقوام يتاجرون بالقرآن ويريدون به الدنيا وما عند الناس فباعوا أغلى مثمن بأرخص ثمن .

ثم رتب على ذلك نصحاً وجهه للناس : أن يقصدوا الله بقراءتهم للقرآن وبأعمالهم الصالحة .

ثم عاد فذكرهم أن الناس كانوا يعرفون الصالح من الطالح بما يخبر به الوحي المنزل على خاتم الرسل ، فكثيراً ما أنبأ عن طوايا قوم وعن سرائرهم وكان في ذلك زجر لمن تحدثه نفسه بالانحراف خشية أن يفضحه القرآن بين الناس .

ثم بين لهم البديل بعد قبض النبيّ ﷺ وتوقف الوحي ، وذلك البديل هو : الاحتكام إلى الظواهر ، فمن أظهر الخير فهو من أهل الخير، ومن أظهر الشر فهو من أهل الشر ، وعلى هذا تجري المعاملة في المجتمع المسلم .

ثم اختتم خطبته بدعوة الناس إلى قمع شهوات نفوسهم فإنها تتطلع دائماً إلى الشهوات الفانية والملذات البالية ، ومن أسلم قياده لشهواته أوردته المهالك ، فالشهوات عمرها قصير والإحساس المؤلم بعواقبها طويل، فخير للإنسان أن يعيش في ظل براءته الفطرية لأن طلب البراءة بعد ذهابها عسير .

وهذه الخطبة على قصرها ووجازتها قد عالجت جملة من عيوب الناس وكل معنى وارد فيها مستمد من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ هذا من حيث

المضمون أو الفكرة ، أما من حيث الشكل أو الصورة فالخطبة كلها من باب الإيجاز وإن اشتملت على سمات الإطناب في بعض جزئياتها فكم هي المساحة الزمنية التي تلقى فيها هذه الخطبة يا ترى ؟ لحيظات قد تحسب بالثواني ، ولكن معانيها إذا بسطت فتحتاج إلى مجلد أو مجلدات ، فحسبك أن تبسط ما يشير إليه قوله :ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأعمالكم »، فسوف تجد أنك في أمس الحاجة إلى الحديث عن الإخلاص والنصوص والوقائع الواردة فيه ، ثم عن الرياء وأقسامه والنصوص المحذرة منه ، والوقائع التي حكيت فيها ، بخاصة ما صدر من المنافقين في صدر الإسلام، وستجد نفسك في حاجة إلي أن تذكر ولو نماذج من الحالات التي فضحها الوحي ، ثم عن الاستقامة وكبح النفس عن هواها وعن مضار الانغماس في الشهوات وإطاحتها بالأفراد والشعوب والأمم . .الخ.

ولعلك أدركت سر التكرار للحرف « ألا » في مطالع بعض الجمل ، فقد أريد منه استثارة النفوس ، وتهيئة الأذهان والمشاعر لما يقال ثم قف أمام هذه المقابلات السارية في غضون الخطبة مثل: يريدون به وجه الله - يريدون به ما عند الناس - الوحي ينزل - والنبيّ بين أظهرنا - رفع الوحي وذهب النبيّ - من أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأثنينا عليه - ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه - الحق ثقيل مريء - الباطل خفيف وبيء.

أما قوله رضي الله عنه : « وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة » ، فهو من جوامع الكلم ، ومن الحكم الرائعة ، وفيه روعة وخلابة وصدق .

ومن التصوير البيانيّ : الكناية بما عند الله عن نعيم الآخرة ، والكناية بما عند الناس بحطام الدنيا ، وبما أظهر لنا خيراً عن الصلاح والاستقامة ، وبما ظننا به خيراً وأثنينا عليه عن حسن الأحدوثة وكمال التكريم ، وبما أظهر لنا شراً عن الاعوجاج والانحراف ، وبما ظننا به شراً وأبغضناه عليه عن سوء الأحدوثة والاحتقار ، ومن التصوير البيانيّ تشبيه الحق بالطعام المر الحميد العاقبة ، وتشبيه الباطل بالطعام اللذيذ الوخيم المنقلب ،

والاستعارة المكنية في « رب نظرة زرعت شهـوة » ، وتشبيه الشهوة بمورث ورث عقبه شراً وندامة .

ومع أن تاريخ الخطبـة يرجع إلى صدر الإسلام الأول فـإننا لا نحس فيها بلفظ غريب سوى كلمتين:

«اقدعوا» : بمعنى كفـوا وامنعوا . **«وطلقة»** : وهي صيغة مبالغة من التطلع والولوع بحب الشيء والتزام متابعته .

ولكي يبين لك فـضل هذا الكلام ، وجـمال هذا الأسلوب قـارنه بما يقال الآن مما أشبهه في الغرض ، فإن المقارنة ستكشف لك اللثام عن فروق تشبه الفروق بين الذهب الإبريز ، والحديد المؤوف[1] .

وحسبي وحسبك ما قدمناه ، وإن كان المقام يتطلب كثيراً من البيان .

أسـأل الله أن ينفـعنا بما نقـول ، ويسـدد خطانـا على طريق الحق ، ويوفقنا للدفاع عنه ، آمين .

المطعني

ليلة الثاني عشر من جمادى الأولى عام ١٤٠٩ هـ

---

(١) المؤوف : الذي به آفة كالتآكل والتهرؤ ، ومما يبـدو جلياً في الأساليب الحديثة : الإسهاب والإطناب مع قلة المعاني واضطراب النظم .